تلك الليلة التي ...

قصة قصيرة

هاديا سعيد

تسير السيدة والرجل ليلاً. ينتهي كل شيء بينهما، ولا ينتهي الليل.

تتشبث بعضلة ساعده الأيسر، وتغرق في الوهم: «أتشبث بمطر صيفي، بعاصفة ربيع استوائي، أتشبث بآخر برعم في أعلى الشجرة. أتشبث بقمر تحجبه غيوم هائلة البطء. أقول للأمس أن أهبط إلى بؤر النسيان، لكن الشوق الملعون يهرع متراجعاً».

تسير السيدة والرجل ليلاً: خطوات بطيئة، ظلمة ممتدة، وفراغ في الداخل والخارج.

«أعجب له» - تقول - «صراحة كالثلج ووضوح كحجر لا يعرف أزميل النحات». يسيران. الليل يتشبث بها وبمحطات الظلمة.

* * *

المدينة لما تزل غريبة، وملابس السكان تنبيء عن شكل من التقاليد يعلن نفسه بجسارة. ملابس أخرى تفضح زيفاً للشكل آخر. هي ذي مدينة مخادعة بسذاجة المراهقات، مندفعة في حدود النهار، وليلها لا يخبيء - حتى الآن - لأمثالها أحجيات ولا مفاجآت.

يسيران. يسيران. الليل يصبح سلحفاة وفوق ظهرها الصخري يجلسان: كلاهما مقترب ومبتعد كما اندلاع الموجة وارتدادها. كلاهما أليف، وكلاهما غريب، والعتمة لا تأتي بغير الصمت، والشارع يبسط ذراعه، تعانقه أشجار الدفلى واللالامرياما.

تطوقها لخطوات اضاءة المحلات المبعثرة، وتحاذيها للحظة قلة من السيارات تمزق البطء بعبور مفاجيء غير آبهة لحظة وقود تتثاءب في انتظارها بكسل.

يعبران الشارع. يسبقها ظلان حزينان، ويواكبها لفترة بعض المارة. ثم، ينكفئان الآن إلى الصمت. تحكي الخطوات أن كل شيء انتهى، وتصرخ شرايين السيدة في القلب:

«أية مخابيء سرية أنشد؟ وفي أي الأوهام أسقط؟ وأنى لي بطمأنينة مخادعة وأحلام هلامية؟ كفى طقساً للحزن فالموقف لن يقدم إلا مسرحاً للأحباط: يوميات من صحون وسجائر وجرائد وهدوء مفتعل. الدم يهطل من الشرايين، يتدفق لاهثاً إلى النبض. يشرق قبلة ويشرق احتضاناً، ثم يلتاع فراغاً. قلت دمي جنّي يهدر صعقاً. قلت التهب انتاء لأب وطفولة وقناعة. قلت إلهي أعوذ بك من الملاعق والروتين ومراقبة السلوك المرئي، وقلت إلهي أمتشق الحنان والرغبة الملتاعة شوقاً للهدر والصراخ، وقلت إلهي ألهمني ابتلاع حبوب المداهنة والمجاملة والرضى بما قسمته لنفسي. لكننا نسير- قلت- والظلمة تصل مرآة، والظلمة لحظة اطلاق سراح، ولحظة مثول:

(يوم كئيب: قالت الأم إذ أيقظت ابنتها فجراً:- صلّي يا ابنتي ركعتين ثم اذهبي).

وذهبت الأبنة بعد أن صلت ركعتين.

وفي المحكمة، همس لها:

- أنت أفضل النساء. وحذاؤك بملايينهن.

- لكنني كنت حذاءك في الأمس وكنت تتقن انتعالي جيداً.

- أيقنت الآن كم كنت مخطئاً. هل تتراجعين؟ هل تتركين فرصة؟

- فرصة؟

«قدما الطائر افلتتا أخيراً من دبق الغصن المزيف، والشجرة لم تعد تملك وعودها: تناثرت أوراقها وحل خريفها والأغصان لا تحبل سوى بشوك يدمي».

- فرصة؟ ألم ينته كل شيء؟

- بالنسبة لك. أما بالنسبة لي ف..

- دعنا.. لا تغيّر لغتك بعد.

- هل أنت مصرة؟
- ....

ووقفاً بعد أن سترت السيدة رأسها بمنديل تضعه المحكمة عند الباب احتراماً للطقوس، ورددا معاً ما أمر به القاضي الشرعي نزولاً عند رغبتها. وهكذا، خلال عشر دقائق، أصبحا غريبين، وانتهت عشر سنوات بعبارة).

★ ★ ★

يسيران، ولحظة المثول مستمرة:

« أقول ولا يسمعني القاضي: ليت كل شيء يتم بمثل ما تأمر به سيدي: إن التصقا، ثم إن افترقا. ليتك قاضٍ تأمر أن يزج بالطغاة في السجون، ويطلق الأطفال عراة في القصور، ليتك تأمر بزواج السلطة من العدل، وطلاق الحكام من الغدر. لكنك لا تحيك سيدي سوى الحكايات ».

صاحت خالتها إذ جاءت ظهر ذلك اليوم الكئيب مهرولة لسماع الأنباء:

- ولا يهمك. ألف من يتمناك.

وهمست العمة:

- مسكينة. ليس لها حظ.

وتساءلت الأم:

- ألم يحاول الاعتذار قبل الطلاق؟

وقال الأب في قبره:

- أيا ابنتي. ها قد نذرتك للألم الكبير والصغير.

ثم، أمطرت مدينتها في ذلك اليوم الكئيب، رصاصها المعتاد، فأطبق الجميع صمتاً.

★ ★ ★

« ... وكان أبي جبل أحزان مغطى بأشجار الحب. وأخبرني عن أيام الأحذية والمطابخ، وأخبرني عن الخواجة كيف اقتلع يده المغروسة في تربة حدائق القصر، وعلّمه الحرف وصحبه إلى دائرة العدل ومنحه وظيفة وراتباً ثم تعويضاً وتقاعداً لسنوات التوقف الرهيبة. لكن أبي لم يحن الرأس للخواجة ولم يمنح سوى ابتسامة شكر طيبة. وكان أن صعد بي إلى الحكايات وهبط بي إلى دهاليز الاسكافيين والحائكين. ولم يرو لي حكاية عن أمير قط، لكنه أنشدني « الأسطة عطية » في رحيله الصباحي عند صياح الديكة: صوته يمتزج بهدير موج المتوسط، والشاطىء جذل بوحدته وهدوئنا، والوقت فجر أو عصر، لكننا دوماً كنا معاً، والبحر صديق. وما تذكرت أبي، بعد رحيله، بغير البحر، وما رأيت موجة قط بلا صورته. وللموج، بعد، صوته إذ يغني: « يله بنا على باب الله يا صنايعية ».

تسير السيدة والرجل، ولا علاقة لها « بالصنايعية ». فهما في الطابق الأعلى، « والصنايعية » في الأسفل، يقبعون بين حروف المطبعة، وفي الأسفل يعرقون بين كتل العجين، وفي الأسفل يلملمون الصالح من بين القاذورات، وفي الأسفل يلعنون ويشتمون ويتضاحكون ويروون النكات الماجنة.

يسيران، والأب في صمته، مع « الصنايعية » بيديه، ومع البحر بقلبه، ومعها بصوته وصمته وبحره.

★ ★ ★

يسيران، ولا علاقة لها بالأب، فهو قد رحل مع سنوات الماضي، حيث للحكايات نكهة الشتاء الدافيء رحيث للأيام عبق الانتماء.

أما اليوم....

(- ماذا تنشدين من الحياة؟

فاجأها بغضب ذات شجار.

- كنا ووالدي حلقة حنان شتائي.

المطر يهطل في الخارج. ودفء البيت الفقير يطوقنا. الموقد حديقة دافئة و...

- أقول. ماذا تنشدين الآن؟

- ربما. ربما قناعة.

- المرأة لا يقنعها سوى الرجل. الزواج. العائلة.

- لقد حققت كل هذا، فلم أجد إلا فشلاً.

- ها أنت تغادرين الفشل. وما بعد؟

- .....).

★ ★ ★

يسيران. يقتربان من أحد المساجد: سيول السيارات الرابضة أمام باب المسجد تشي ببورجوازية تشكر إلاله على نعمه وتطالب بالمزيد.

- في الليل يذكرونه وفي النهار ينسونه.

يهمس الرجل ساخراً، فتصمت السيدة:

« إلهي أعوذ بك من النسيان ومن البهتان، وأعوذ بك من التوقف والتكرار وهدوء الجدران. إلهي أعنّي لتخطي الركود إلى لحظة دفئك المتواصلة. أمسك بيدي لتلمس درب انتماء آخر.

رحل « الصنايعية » يا إلهي إلى الحكايات ودفنوا في مقبرة أبي. استبدلوا في حكايات الطغاة بمحاسبين ومقاولين وسماسرة وميكانيكيين. قبعوا في دهاليز السوق السوداء ومدوا الرؤوس في الأزمات كالأفاعي ولسعوا الموظفين وأصحاب الدخل المحدود ».

★ ★ ★

- هل نرجع إلى البيت؟

ويرجعان.

يدخل الرجل في جريدته، وتدخل المرأة في انتظارها، وينسدل الليل.

تخرج إلى الشرفة. تعانقها نسمة غير متوقعة. المدينة لما تزل غريبة، وقراءتها بين أسطر صحف المعارضة تشي وتستحي وقد تغرق فجأة في واقع لا بد منه.

الليلة ستكون طويلة.

تؤاسيها نظرة كابية من سمراء تشرق في شرفة العمارة المواجهة، وللحظة تتواطأ النظرتان في الحيرة، ثم ترتفع عينا السيدة إلى أفق بعيد.

ثمة نظرتان مراهقتان تلوحان لسمراء الشرفة بابتسامة، فتسدل خصلة من شعرها حمقاء وتختلس لاإبالية كاذبة للشاب المتكىء عند العمود الكهربائي.

تبعد الرأس الآن لكنها تلصق الخصر على حافة حاجز الشرفة. تعاود اللعبة فتبعثر نظرة صارخة الغنج.

يقتحم الصمت رجل عبوس بدراجته، يبصق في مساحة العاشقين والسيدة، ثم يتوارى عند انعطافة الشارع الهادىء.

تسأم السيدة إذ تتواصل لعبة المراهقة، تلقي نظرة إلى شاب العمود الكهربائي فتراه قد غرق بشرود مفاجىء، والسمراء مافتئت تجتر لاابالية مخادعة، تدلف السيدة موارية باب الشرفة.

★ ★ ★

ثمة اختناق هنا لا تعي له سبباً. ثمة كتب عديدة أيضاً، وصالة تفضح حاجياتها دواخل أصحاب الدار:

قلق مشوب بتوتر يتاوج صخباً وحزناً ثم يتكيء إلى غرابة معلنة للزائرين الطارئين. الألوان أليفة متناغمة إذ يراها صديقها التشكيلي، وباهتة إذ تتفحصها الجارة النحيلة ذات الفضول الاستثنائي في هذه المدينة الغريبة.

كرسيا القش الأخضران، يستحضران جو حديقة، لكن صديقاً للسيدة يتسلق بورجوازية خفية يؤكد أن الكرسيين قبيحان. وفي الليل يبدو الكرسيان لسيدتها، كما عجوزان أصابها شلل أكبر فأقعدا ساكنين، وعلى مبعدة منهما ربضت طاولة مكتب.

« يغرقني تأمل الأشياء بتيار وصفي لا آلفه. اكتشف أني أملك رؤية لا تغرز نفسها سوى في العمق. في طفولتي كنت أنسى ملامح الأقرباء الذين يزورونا في المناسبات والأعياد. وفي كل مرة كانت تحيتي المتوجسة مسبوقة بتأنيب معتاد من والدتي:

- هذه طفلة مثقوبة الذاكرة.

لكنها تصعق إذ تراني أوقظ نسيانها لصغيرة خادمتنا التي زارتنا منذ سنة فلعبنا معاً، وفي نهاية اليوم تعانقنا وبكت.

وكانت تصعق إذ تكتشف اني لم أنسَ عامل القاذورات يطرق باب العيد لدينا، فتواجهه أمي بشكها المعتاد:

- إنه ليس هو. لعله آخر ينشد طمعاً..

لكني أقفز دوماً وأؤكد أنه هو.

- يا لعينة، كيف عرفته؟

وأهمس: عيناه حزينتان ».

★ ★ ★

يلوي الرجل الرأس، وتظل العينان غارقتين في الصحيفة:

- يجب أن تقرأي هذا المقال.

- أي مقال؟

- تصعيد الحرب السوفياتية في أفغانستان. مدعوم بالأرقام. سوف أنهيه وأعطيك الجريدة لتقرئيه. مقال مهم. وهناك مقال آخر عن أحداث تركيا. أما أوضاع لبنان فلا تزال الأخبار متضاربة.

تغادره وتنكفىء إلى غرفة النوم.

★ ★ ★

الوحدة؟

إنها الوحشة أيضاً. لكنها ليست اطلاقاً وحشة السجناء، ولا وحشة الشعراء. هي الوحشة، تلك، المستسلمة لطمع الاسترخاء والتبرير الوثير.

هي وحشة تتشبث بها الآن، كما تتشبث العجائز بالهموم المختلفة. وكما تتشبث النساء بابتسامة كاذبة تحجب غيرتهن.

« تمنيت أن يقولها مرة: تغارين، وددت لو أسمعه ينطقها كزغرودة. لكنه لم يقلها قط. بل لعله لم يكتشفها لديّ. أي حب ميت هذا الذي يطوقني به!

- تغار. تغار.

قلتها له مراراً: ضاحكة وساهمة وغاضبة وثائرة ومستخفة. وقلتها له مراراً بنظرة وبهمس وبصراخ وبعناد. لكنه لم يتنبه يوماً اني أغار من استدارة نظرة غير متوقعة، ومن انتباهة تلقائية. لم يكتشف قط دوامة غيرة مسكونة بمخاوف تحتضنها كبرياء مفتعلة.

يطرق على طاولة المكتب بقبضة غضوب:

- أكاد أجن. قلت لك: أنا رجل بسيط. بسيط. لا أنشد مجداً ولا نيّة لي في تغيير العالم.

- الموتى أيضا يملكون الراحة التي تتحدث عنها.

- فلتعتبريني ميتاً ولتكفّي عن..

- عن ماذا؟

- ألا تعلمين؟

- لا. لا أعلم.

- لماذا تضيفين إلى الشجار مشاكسة مزعجة؟

- ما هي المشاكسة؟

- هي ما تفعلين الآن.

- وما أفعل؟

- أوه. لم أعد أطيق صبراً. سوف أختنق.

ويغادرني إلى صنع فنجان شاي.

اكتشف اني مثقوبة الذاكرة حقاً. أحاول التقاط أسباب ضيقة فأعجز سوى عن اكتشاف لغة موارية حمقاء: (أنت قلت. أنت تحدثت. ماذا تعنين؟ لم أكن أقصد...).

اللغة جاسوس يمارس وصلا وداً وخديعة وتكالبا.

أعاند. لن تغلبني اللغة:

- أقترح أن نمارس صمتاً لحظة الخلاف، ما رأيك؟

لكني أسقط بين براثنها إذ أضيف:
- أليس أكثر راحة أن نغلق أبواب الخلاف؟
يبحلق مستنكراً:
- أي خلاف؟ إن الخلاف ليس بيني وبينك. بل الخلاف لديك أنت. التناقض في داخلك أنت.. أنت.. آه لكم أنت غريبة ومتعبة!
ويغادرني إلى ارتشاف الشاي.

★ ★ ★

حقاً. إنه الخلاف الذي لا بد منه. دفء البحث. عشق اللهاث في غوص لا يفضي سوى إلى عمق آخر. وأعلم أني لن ألتقط صدفة اللؤلؤ، ولن أقبض على الاسفنجة المسحورة لتمتص لي أحزان الدنيا. أعلم أن الاكتفاء رعب، والاستكانة هم الشيوخ. لكني رغم كل شيء محاصرة بنكسات شتى:

★ ★ ★

(ذات يوم، تنتفض أمي:
- لم قطعت صلاتك يا ابنتي؟
- لا أدري.
وذات ليلة، تطوقني ذراعاه كأم، ويهدر جسده في داخلي كدماء، ونلتصق كالجنين في الرحم، ولكن:
- ما بك؟
- لا أدري.

★ ★ ★

وذات شجار، قبل الطلاق أصرخ غاضبة:
- ماذا تنشد من حياتك؟
- الحرية. في الدرجة الأولى.
- لمن؟
- للجميع.
- لكنك صفعتني أمسَ، إذ أعلنت رأياً مغايراً لرأيك.
- هذا سخف. تحيلين كل الأمور إلى أوضاع شخصية.
- ألم تقل في إحدى نقاشاتك ان العام ينطلق من الخاص، والفرد جزء...
- النساء لا تبحث عن تطبيق النظريات سوى في حياتهن الشخصية. الحرية تعني لديهن انحلالاً. والمساواة: اعلان التفوق على الرجل.
- لكني لا أنشد سوى تطبيق بعض من مبادئك في علاقتنا.
- وما ينقصك؟
- عدالتك.
- كفى. هكذا أنا. لن أسمح لك أن تصبحي شرطياً يحاكمني.
- لكني غير سعيدة معك في...
- (صفعة).

★ ★ ★

وفي «اجتماع» أهمس ببكاء:
«العالم يحترق، والأطفال يقتلون جوعاً وتشرداً ورعباً. القارات بركانية. والحروب ثنائية. ووطني ينزف خيبة وحماقة.
إن الأعلام العربي صفيق. والأعلام الأجنبي ثعباني. إني أود أن نصدر بياناً يقنعنا قبل أن نقنع الآخرين و..
يقاطعني الرفيق الوسيم: «يا رفيقة. تعلمين أن المعاناة الخاصة شيء، والوضع السياسي شيء آخر وإن.....».

★ ★ ★

يعلو صراخ.
يلقي الرجل صحيفته. تبتلع المرأة هذيانها ويهرعان إلى النافذة:

★ ★ ★

- إنه هو... هو..
- من هو؟
- كان منذ قليل.. منذ لحظة.. حين عدنا من نزهتنا الليلية.. كان يقف أسفل العمود.. كان يتطلع إلى هذه المراهقة السمراء.. آه.. لقد اختفت.. أين هي؟ كانت في الشرفة منذ قليل.. حسبته عاشقاً.. كانت تبادله نظرة مغناج.. لكنني.. لكنني رأيته يحزن فجأة.. أجل، ثمة كآبة في عينيه اندلعت، لكني.. لكني لم أحسب أنه... آه..

★ ★ ★

كان الشاب مسجى الآن عند أسفل العمود الكهربائي، وعلى مقربة من جثته تناثرت بعض قشور البرتقال، وعند قدمه سيكارة مطفأة.
في صباح اليوم التالي، ابتاع الرجل جريدته كالمعتاد، وكان التاريخ هو (١٠ حزيران ١٩٨٠) وقرأ بتركيز أخبار الصفحة الأولى والثانية.
وبعد ظهر اليوم التالي، قلبت السيدة صفحات الجريدة وفي زاوية من الصفحات الداخلية قرأت هذا الخبر:
انتحار شاب.
«انتحر شاب، بعد تسلقه عموداً كهربائياً بشارع (....) حيث مكث مدة قبل أن يشد بيديه على الحبال الكهربائية وسقط على الأرض ميتاً في الحين. وأثناء مكوثه بالعمود الكهربائي أكل ليمونة، أشعل سيجارة، واستنكر الأوضاع الفاسدة التي تعرفها البلاد....».

الرباط (المغرب)